راضي الهاجري

مقطوعة الوداع

فجأة ضجت الهواتف الذكية بتلك الرسالة الحزينة، ولكم تمنيت لحظتها أن تكون الهواتف كعادتها تمارس من الغباء المعهود بنشر الإشاعات ما تعودت عليه.. إلا أن الخبر كان صحيحاً ..

توفي الموسيقار وتساقطت مزامير داوود التي حبانا الله إياها من جديد في قطر على يد ذلك الإنسان الذي كرس نفسه وحياته لتقديم كل ما هو راقٍ وهادف..

لم ألتق به إلا مرة أو مرتين عرضًا.. إلا أنه وذكره لم يكن يغيب عن حديث الذكريات مع خالي أطال الله في عمره، فقد كانا من ضمن زملاء الغربة للدراسة في القاهرة، والذين كانوا في تلك الفترة النواة لتكوين الثقافة القطرية، والارتقاء بمستواها عبر احتكاكهم بكل ما حملتهم به قطر من أصالتها بشتى أنواع المعارف والثقافات.

وبينما هم في غربتهم كنت قد بدأت أحبو في صعيد الحياة مطلع السبعينيات من القرن الماضي.. وبدأت ألتمس المعارف في جنباتها كلما أنست منها وهجاً.. إلا أنني لم أكن قادرًا على ممارسة التخيّل.. فقد كان الخيال عندي مرتبطاً بصورة نمطية قد تكون خاطئة في بعض الأحيان..

فلا أدري لماذا كنت أتخيل صغيرًا عندما أسمع عبارة أن الحوت أكل القمر تعبيرًا عن الخسوف منظر دب قطبي يعدو على سطح القمر ملتهماً إياه!

خيالي كان متحفزًا فعلاً.. ولكن بشكلٍ غير دقيق..

وكنت أسمع عن فلسطين والقدس.. وما يحدث في بيروت من مجازر ودمار..

ولكن لم أكن أدرك ما الذي تعنيه لي هذه الأسماء والتي اجتهد خالي حمد الفرحان رحمه الله ليثقفني حولها، كما كان يحدثني عن أمور كثيرة من أمور الحياة قديما وحديثا..

إلا أن الدرس الأكبر.. كان عندما استدعاني للجلوس ذات مساء أمام شاشة التلفزيون.. وأصدقكم القول أنني لا أذكر البرنامج.. ولا أذكر الحوار.. ولكني أتذكر ثلاثة أمور.. أولها أنني أحببت القدس ليلتها حتى شعرت بأن المحبة كالقطر يسري في روحي.. وثانيها بأنني توجعت من وجع بيروت حتى تلاشت الابتسامة.. فصرت أستغرب قدرة الإنسان على التنفس مع كل هذا الوجع الغازي لثنايا الروح..

وثالثها الاسم الخالد في ذاكرتي: عبد العزيز ناصر..

كان معلمي ولم أره ..

كان مهذبي ولم أعرف ملامحه..

حتى كبرت.. وظل قدره يكبر عندي.. فهو عندي خارج التصنيف مع وافر الاحترام لكل المبدعين القطريين.. فلم أستغرب تكريمه يومًا بجوائز الدولة المختلفة.. وإن كنت أدرك أنها لم تكن لتشكل له فارقًا رحمة الله عليه إلا أن تكون حافزًا لبذل المزيد من الجهد لتزايد حجم المسؤولية..

ولم يفاجئني أن يكون لحنه هو اللحن الرسمي للنشيد الوطني القطري.. فرسالته الفكرية والإنسانية السامية يحق لها أن تخلّد بخلود هذا الوطن إن شاء الله..

وقيثارة الخلود القطرية، وإن توقفت أوتارها عن العزف، إلا أنها ستظل تحتل قلب الدوحة.. وإن كنت سعيداً بشيء من الغصة، وأنا أشاهد اسم عبد العزيز ناصر يزين مسرح الريان، بلفتة سريعة من القيادة الرشيدة تعكس التقدير الحقيقي لمبدعي هذا الوطن.. إلا أنني حزنت لتوقف هذه الرسالة، ولا راد لقضاء الله..

كثيرون سيحاولون السير على خطى عبد العزيز.. ولكنه مشى في درب قل سالكوه.. وبتفانٍ قل نظيره.. فمن يرد أن يكمل مسيرة الموسيقار فليختر طريقاً آخر.. وليكن مليئاً بالشوك.. وليمشه مبتسماً.. لندرك أن الجذوة لم تخمد.. فعبد العزيز كان ظاهرةً فريدة.. تحجرت الكلمات في الحناجر وتجمدت المياه في المآقي، وأنا أستعيد تلك الأنغام الخالدة في صمت.. إنها مقطوعة الوداع.. المتجدد.

شاعر قطري